ROUTE
EDUCATIONAL & SOCIAL SCIENCE JOURNAL
ISSN: 2148-5518

Volume 9, Issue 5, September 2022, p. 495-516

Article Information

Article Type: *Research Article*

This article was checked by iThenticate.

ArticleHistory:
Received
22/08/2022
Accept
30/08/2022
Available online
15/09/2022

ETHICS IN THE PHILOSOPHY OF BARUCH SPINOZA

Assarah Falah Hassan Ali[1]

Abstract

Spinoza emphasized ethics as a kind of branch of philosophy, as many of his books did not address the true meaning of the word "ethics", and do not contain Spinoza's doctrine of ethics except in a specific area, through research on God and man, in terms of his nature and the nature of his knowledge, and finally Moral. Spinoza also emphasized on metaphysical, ontological and epistemological topics such as God, the world, essence, perfection, human knowledge and human understanding, for the sake of Spinoza's conviction that all the contemplations of metaphysical philosophy and all the ontological ideas that the human mind can put in place have no final purpose except directing man in his life for a clear goal. For this human life, including happiness and human mental and moral integrity.

[1] Assist. Teacher. University of Baghdad, College of Arts/ Library Division of College of Arts, Fd93xg@gmail.com .

الاخلاق في فلسفة باروخ سبينوزا

اسارى فلاح حسن علي[2]

ملخص

أكد ســـبينوزا على الأخلاق باعتبارها نوعاً من فروع الفلســـفة، إذ أن العديد من كتبه لم تتناول المعنى الحقيقي لكلمة "الأخلاق"، ولا تحتوي على مذهب سبينوزا في الأخلاق إلا في مساحة محددة، وذلك عبر البحث في الإله والإنســـان، من حيث طبيعته وطبيعة معرفته، وأخيراً الأخلاق. كما اكد ســـبينوزا عن موضـــوعات الميتافيزيقية والأنطولوجية والإبســـتمولوجية مثل الإله والعالم والجوهر والكمال والمعرفة البشـرية والفهم الإنسـاني، وذلك لأجل قناعة سبينوزا بأن كل تأملات الفلسـفة الميتافيزيقية وكل ما يمكن أن يضـعه العقل البشـري من أفكار أنطولوجية ليس له غاية نهائية إلا توجيه الإنســـان في حياته من أجل هدف واضـــح لهذه الحياة الإنســـانية ومنها الســـعادة وسـلامة الإنسـان العقلية والأخلاقية. وهكذا يعود سـبينوزا إلى معنى قديم في الفلسـفة تم تناسـيه لفترة طويلة، وهو المعنى الذي يربط كل تأمل عقلي وكل نظرة مجردة بالسعادة الإنسانية.

اعتقد سـبينوزا أن مذهباً أخلاقياً لا يمكن تأسـيسـه على نحو صـحيح ما لم يتضـمن حلاً للمشـاكل التقليدية حول العلاقة بين الإله والعالم، وبين النفس والجسـم، وبين الروح والمادة. إذ واجه سـبينوزا تراثاً فلسـفياً يقيم فصـلاً تاما عليه بين الجانب الروحي والجانب الجســـدي من الإنســـان، وبين الإله والعالم، وكانت نتيجة ذلك أن تم إعطاء الأولوية للروح على الجسد، وللإله على العالم. وفي نظر سبينوزا لا يمكن أن يقسم الإنسان إلى هذه الثنائية ما لم يترتب على ذلك نتائج وخيمة بالنسـبة للأخلاق، لأن الاعتقاد في وجود الإله مفارقاً للعالم ويؤدي إلى أن يزهد الإنسـان في هذا العالم ويتقشـف ويترك حياته كلها باعتبارها زيفاً وفناءً، والاعتقاد في أولوية الروح على الجسـد يؤدي أيضاً إلى إهمال الجانب الجسدي من الإنسان.

على ضوء ذلك اسست عنوان بحثي الموسوم (الاخلاق في فلسفة باروخ سبينوزا).

تكون البحث من مقدمة اسـتعرضـت من خلالها تمثل المشـكلة الأخلاقية في حقيقة جوهر التسـاؤل الفلسـفي، وليس الســبب في ذلك هو أن الأخلاق ملتقي النظر والعمل فحســب، أو أنها نقطة تلاقي كل من الفكر والإرادة فحسب بل لأن الحقيقة الأخلاقية هي بمثابة همزة وصل بين العالم والإنسان أو الواقع والقيمة.

واسست لثلاثة مباحث، المبحث الاول: طبيعة سبينوزا الحياتية وبحثه المعرفي، تناولت من خلاله حياته ونشأته وامتداد فكره. اما المبحث الثاني: مفهوم الإنســان عبر نظرية ســبينوزا المعرفية، وتناولت من خلاله مفهومه عن الغايات الإنسـانية، وايضـا طبيعة المعرفة عند سـبينوزا، المبحث الثالث: المشـكلة الأخلاقية عند باروخ سـبينوزا، تناولت من خلاله، وحدة الجوهر، والانفعالات والتحرر من سلطة عبوديتها.

[2] جامعة بغداد... كلية الآداب... شعبة مكتبة كلية الآداب.

ومن ثم الخاتمة، والمصادر والمراجع.

المقدمة

تمثل المشكلة الأخلاقية في الحقيقة جوهر التساؤل الفلسفي، وليس السبب في ذلك هو أن الأخلاق ملتقي النظر والعمل فحسب، أو أنها نقطة تلاقي كل من الفكر والإرادة فحسب بل لأن الحقيقة الأخلاقية هي بمثابة همزة وصل بين العالم والإنسان أو الواقع والقيمة. لذا نجد أن الفلاسفة حاولوا إقحام أنفسهم في هذه المشكلة التي تعبر عن روح الإنسانية المتعالية عن عالم الدنيا، والبحث عن ما يُكدر صفوة الحياة الإنسانية، ومعالجتها وكذلك التطرق إلى الطبيعة البشرية أي النظر إلى ماهيتها.

إن غاية المشكلة الأخلاقية هي غاية الفلسفة برمتها، فلقد شبه "ديكارت" الفلسفة بالشجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها العلم الطبيعي وأغصانها بقية العلوم، وهذه ترجع إلى تلامس الفعل مع بقية العلوم المجاورة، ومنها: الطب والميكانيكا والأخلاق، وهذا ما يؤكد أن الأخلاق تفترض معرفة تامة بالعلوم الأخرى، والتي هي آخر مرتبة من مراتب الحكمة. لكن ما بحثه ديكارت لم ينته به إلى تأسيس أخلاق دائمة وإنما أخلاق مؤقتة فقط لم ترق إلى التأسيس المعرفي الضخم، ومن هذه النقطة التي انتهى إليها ديكارت، أنطلق الفيلسوف "باروخ إسبينوزا" لرسم معالم المشكلة الأخلاقية عنده، والتي تجسدت في كتابه الرئيسي علم الأخلاق، والذي استعمل فيه المنهج الهندسي، وأراد من هذا الكتاب أن يكون نظيراً لمؤلف "إقليدس" الهندسي في عالم الفلسفة، مؤكداً أنه أراد أن يعالج الانفعالات والمشاعر البشرية مثلما يعالج عالم الهندسة الدوائر والمثلثات والخطوط وأن ينظر إليها نظرة موضوعية مجردة من كل عناصر التفسير الذاتي، وقد ساعده هذا المنهج على بناء نسق فلسفي شامل تحكمه الضرورة المطلقة، لا شيء في الكون عرضي، بل كل شيء يتحدد وجوده، ويسلك على نحو معين وفق لضرورة الطبيعة الإلهية، هكذا يصرح إسبينوزا وحتى الله في وجوده يعتمد على الضرورة الوحيدة لطبيعته ويتصرف وفقها، ومن ثم لا مجال للحديث عن الحرية، وخاصة حرية الإنسان، على الرغم من هذا هنالك إقرار بالحرية الأخلاقية وهنا تكمن المشكلة الأخلاقية عند إسبينوزا وهذا ما يدفعنا إلى طرح الإشكال الآتي: كيف يمكن إثبات الحرية في مستواها الأخلاقي داخل نسق تحكمه الضرورة؟ وكيف يمكننا فهم أن حرية الإنسان وهم من جانب ومن جانب آخر نثبت حرية أخلاقية تقوده إلى السعادة.

المبحث الاول

طبيعة سبينوزا الحياتية وبحثه المعرفي

يرى سبينوزا أن العلم قوة وحرية، ويرى أن السعادة الدائمة تكمن في تحصيل المعرفة ولذة الفهم في الحياة. إلا أن هناك مشكلة تجابه سبينوزا وهي، كيف أعلم أن ما حصلت عليه من معرفة هي معرفة صحيحة؟ وكيف أتيقن من أن ما تنقله حواسي إلى ذهني من علم صادق؟ وأن عقلي أمين على النتائج التي يستخلصها من تلك الأحاسيس التي تقدمها الحواس؟ غير أنها مع ذلك عرضة للتغير والتبدل.

اولا: حياته ونشأته

ولد سبينوزا سنة (1632) في أمستردام، هولندا، لعائلة برتغالية من أصل يهودي تنتمي إلى طائفة المارنيين، فقد كان والداه يهوديين هاجرا من البرتغال، كما اضطر العديد من يهود شبه جزيرة أيبريا (إسبانيا والبرتغال) إلى الهجرة لكثير من دول غرب أوروبا هروبًا من اضطهاد السلطات هناك. وفي البداية اضطروا إلى اعتناق المسيحية، أما بعد أن وجدوا مناخًا متسامحًا في هولندا فقد عادوا مرة أخرى إلى اليهودية، كان والده تاجرا ناجحًا في أمستردام، ولكنه متزمت للدين اليهودي وبالإضافة إلى تجارته تولى كثيرًا من المناصب الدينية في المجتمع اليهودي هناك، بل وعددًا من المهام التدريسية المنصبة على تعاليم التلمود.[1]

تربية باروخ كانت أرثوذوكسية، ولكن طبيعته الناقدة والمتعطشة للمعرفة وضعته في صراع مع المجتمع اليهودي، درس العبرية والتلمود في يشيفا "مدرسة يهودية" من (1639 –1650م) في آخر دراسته كتب تعليقا على التلمود، وفي صيف (1656م) نُبذ سبينوزا من أهله ومن الجالية اليهودية في أمستردام بسبب ادعائه أن الله يكمن في الطبيعة والكون، وأن النصوص الدينية هي عبارة عن استعارات ومجازات غايتها أن تعرف بطبيعة الله. بعد ذلك بوقت قصير حاول أحد المتعصبين للدين طعنه.

كان سبينوزا تلميذا نجيبا وموهوبا، وتلقى تعليما دينيا في مدرسة الجالية اليهودية بأمستردام، وعلى الرغم من تعمقه في دراسة التوراة والتلمود، إلا أنه لم يتم إعداده ليصبح كاهنا يهوديا كما اعتقد الكثير من كتاب سيرته، بعد وفاة أبيه تولى أخوه الأكبر شؤون تجارته، وعندما مات هذا الأخ، وقع على عاتق سبينوزا إدارة الشركة التجارية التي تركها الأب، لكن لم تكن لـ "سبينوزا" مواهب تجارية ولم تكن شؤون المال والأعمال من اهتماماته، لذلك أهمل التجارة حتى تراكمت الديون وتوقفت الشركة عن نشاطها. على الرغم من ذلك فقد حصل سبينوزا على قليل من مال أبيه مكنه من إكمال دراسته، وعندما لم يكف الميراث لمتطلبات حياته، انشغل بعمل ذي طابع نادر في تلك الآونة وهو صنع العدسات الطبية، وعمل فيها من (1656 – 1660)

ويبدو أن هذه المهنة كانت هي الوحيدة التي شدت انتباه سبينوزا وكانت متفقة مع ميوله، إذ كانت مهنة ذات طابع علمي تعتمد على جانب نظري متعلق بعلم البصريات وجانب عملي يعتمد على العلم التجريبي والخبرة المعملية. (2)

في سنة (1660 – 1663) أسس حلقة فكر مع أصدقاءٍ له وكتب نصوصه الأولى، ومن سنة (1663 – 1670) أقام في بوسبرج بنشر كتابه رسالة في اللاهوت والسياسة سنة (1670) ذهب ليستقر في لاهاي حيث إشتغل كمستشار سري لجون دو ويت، في سنة (1676) تلقى زيارة من الفيلسوف الألماني "لايبنيتز". ويعد كتابه الأخلاق الذي عمل على تأليفه سنة (1677) من أهم الكتب المؤثرة في الفلسفة الغربية (3)، والذي عارض فيه ثنائية "العقل– الجسد" للفليسوف رينيه ديكارت. توفّي سبينوزا في 21 فبراير – شباط (1677) وهو بعمر (44) عاما نتيجة أصابته بمرض رئوي ربما السل أو السحار السيليسي بسبب غبار تنعيم العدسات.

إن العديد من الطائفة اليهودية اختارت الخيار الأصعب وهو البحث عن مكان آخر تلجأ إليه، فحاولوا في بادئ الأمر اللجوء إلى جنوه الإيطالية وبعض الموانئ الأخرى، إلا أنه لم يسمح لهم بالدخول، فأبحروا إلى أن وصلوا إلى الساحل الإفريقي، فقتل الكثيرين منهم لاستخراج المجوهرات من بطونهم والتي ساد الاعتقاد بأنهم بلعوها قبل خروجهم من إسبانيا، فاستقبل القليل منهم بفينيسيا، وأبحرت سفن أخرى إلى شمال المحيط الأطلنطي بين انكلترا المعادية وفرنسا كذلك، ليجدوا بعض الترحيب بهم في هولندا، ومن بين هؤلاء الذين نزلوا إلى هولندا كلاجئين عائلة سبينوزا. وجعل هذه الاشياء وصفية وليست أشياء مستقلة بذاتها. (4)

في البدء أراد أبواه أن ينشئاه تنشئة دينية خالصة، فبعثاه إلى مدرسة حاخام مشهور يدعى "مورتيرا"، فتعلم سبينوزا على يديه أصول اللغة العبرية وتلقن فيما تلقن أصول التلمود، على الرغم من أن والد الشاب سبينوزا كان تاجرا، إلا أنه لم يظهر ميلاً للتجارة، وكان يقضي وقته في مكتبة الكنيس اليهودي منكبًا على الاطلاع لاسيما تاريخ قومه ودينهم، وأبدى تفردا في دراسته مما لفت نظر كبار اليهود إليه، فجعلهم يعلقون عليه آمالاً واسعة في المستقبل، لكن سرعان ما انتقل الفيلسوف من قراءة التوراة إلى قراءة التلمود، ومنها إلى كتابات "ابن ميمون" الفيلسوف اليهودي الذي عرف من خلاله نظرية ابن رشد في الخلود و"ليفي بن جيرسون" الذي قال بأبدية العالم و"ابن عزرا" و"حسداي بن شبروت" الذي اعتقد أنّ الكون المادي هو جسم الله، ثم امتد اطلاعه إلى كتابات فلسفة "ابن جبرويل" وفلسفة "موسى القرطبي" الصوفية المعقدة، غير أنه وجد أثناء قراءته لكتاب "إرشاد الحائر" لموسى القرطبي والذي كان بمثابة تعليقات على التوراة حيرة أكثر من الإرشاد، وذلك

لأن الحاخام أثار فيه أسئلة أكثر من الأجوبة. كان سبينوزا مطلعا بشكل كبير على هذه الكتابات الدينية التي تخص قومه، فاطلع بطبيعة الحال على كتابات ابن عزرا، والتي أخذته على طريق التشكك والحيرة. (5)

تعلم ايضا سبينوزا اللغة اللاتينية والتي كانت لغة العلم والفلسفة آنذاك على يد معلم يدعى "فان دن اندي"، مما أضاء له ذلك في عينيه نورًا جديدًا استطاع بمقتضاه أن يكتشف فلاسفة القرون الوسطى وعلماؤه، لاسيما توماس الإكويني والذي تعلم منه فكرة وحدة الوجود، فكل الحقيقة واحدة في العنصر، واحدة في العلة، واحدة في الأصل، والله وهذه الحقيقة شيء واحد.

بين ديكارت وسبينوزا.

وعلى الرغم من أن سبينوزا تلميذا لديكارت، إلا أن هناك ثمة اختلافات جوهرية بينهما، منها أن سبينوزا استطاع أنْ يطبق المنهج الديكارتي في المجالات التي استبعدها ديكارت من منهجه، لاسيما في أمور الدين. فديكارت كان يعتبر نفسه من حماة الدين وصديقًا مقربًا من رجالاته، ويكفي لتأكيد ذلك الاطلاع على الإهداء الذي صاغه ديكارت في مقدمة كتاب "التأملات" لعلماء أصول الدين، فديكارت إذن متفق معهم في الغاية، غير أن الأمر في حالة سبينوزا مختلف جد الاختلاف، فطبق منهجًا جديدًا في ميدان الدين والعقائد، فكتب يقول: لذلك عقدت العزم على أن أعيد من جديد فحص الكتاب المقدس بلا ادعاء وبحرية ذهنية كاملة، وألا أثبت شيئًا من تعاليمه أو أقبله ما لم أتمكن من استخلاصه بوضوح تام عنه، وعلى أساس هذه القاعدة الحذرة وضعت لنفسي منهجًا لتفسير الكتب المقدسة. (6)

فكان سبينوزا هو فقط من طبق منهج ديكارت في السياسة، فدرس أنظمة الحكم وقارن بينهم، ونقد أنظمة الحكم المطلقة القائمة على الفرد المطلق، وانتهى إلى أن النظم الديموقراطية هي أكثر الأنظمة اتفاقًا مع الطبيعة. فإن الثورة الحقيقية في الفكر الديني والواقع السياسي قد قامت على يد سبينوزا، فكانت رسالة سبينوزا ثورة على الأوضاع السياسية والدينية في عصره وفي كل عصر. وإذا كان ديكارت هو المسئول عن كل تبرير ديني للعقائد في صياغة جديدة؛ فإن سبينوزا هو المسئول المباشر عن كل دراسة نقدية ونفسية لهذه العقائد، وإذا كان ديكارت مسئول عن الثنائية من قسمة الوجود إلى عالم الذهن وعالم المادة، فسبينوزا عن إعادة الوحدة في الوجود، وذلك بالتوحيد بين الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة. (7)

نظرًا إلى ذلك، وإلى ما كان قد دأب عليه منذ كان في الخامسة عشر من عمره، من مجادلة ومحاجة كانت تفحم رجال الدين، فإنه سرعان ما طُرد من الكنيس اليهودي، فخابت الآمال التي علقوها عليه أمدا طويلاً، فاستُدعي أمام كبار رجال الكنيس اليهودي من سنة (1656م) بتهمة الضلال الديني. إذ سألوه هل

صحيح ما يُقال أنك ذكرت لأصدقائك أن الله جسدا وهو عالم المادة؟ وأن الملائكة خلط وهذيان؟ وأن النفس قد تكون مجرد الحياة؟ وأن التوراة القديمة لم تذكر شيئًا عن الخلود؟ يقول "ول ديورانت" لا ندري بماذا أجاب، وكل ما نعرف أنهم عرضوا عليه راتبا سنويا شريطة أن يوافق على موالاة الكنيس اليهودي والديانة اليهودية بكل ما في الدينية العبرانية من اجراءات قاتمة صارمة. (8)

اعلن رئيس المجلس الملي اليهودي بعد أن تبين لهم تماما حقيقة آراء باروخ سبينوزا وأعماله الآثمة، وبعد أن حاولوا بمختلف الوسائل وشتى الوعود أن يرجعوه عن غيه وضلاله، إنهم قد فشلوا في تقويمه وابعاده عن آرائه وأفكاره، وأنه تمادى في غيه وضلاله، وأنهم ترد إليهم كل يوم الشهادات الكثيرة عن بدعه الدينية المريعة التي يقدمها ويجاهر بها والسخافة التي تنتشر فيها هذه البدع في الخارج، فتم القرار بموافقة أعضاء المجلس على إنزال اللعنة والحرمان بالمدعو سبينوزا وفصله عن شعب إسرائيل. وإنزال الحرم به من هذه اللحظة مع اللعنات الآتية بقرار الملائكة وحكم القديسين نحرم ونلعن وننبذ ونصب دعائنا على باروخ سبينوزا بموافقة الطائفة المقدسة كلها، ولم يكتف الحاخامات بذلك، بل حرضوا قضاة المدينة على الحكم عليه بحظر الإقامة فيها، وأن لا يتحدث إليه أحد بكلمة أو يتصل به كتابة أو يقدم له أحد مساعدة أو أن يعيش معه تحت سقف بيت واحد، وأن لا يقترب منه أحد على مسافة أربعة أذرع، وأن لا يقرأ له أحد شيئًا جرى به قلمه أو لسانه. بيد أن سبينوزا قد قابل هذا الحرمان بشجاعة وهدوء قائلاً: لم يرغمني على شيء ولم يحل بيني وبين شيء أعمله.

ثانيا: امتداد فكر سبينوزا

أواخر الخمسينيات من القرن السابع عشر تعرف سبينوزا على مفكر حر هو لود فيج ماير، واسس معه ومع مجموعة من الأصدقاء المقربين جماعة قراءة ودراسة انصب اهتمامها على دراسة فلسفة رينيه ديكارت. وعندما لاحظت الجماعة براعة وتعمق سبينوزا في الفلسفة الديكارتية طلبت منه أن يكتب لها ملخصا شاملا لها، وهكذا أخرج سبينوزا أول مؤلفاته وهو كتاب "مبادئ الفلسفة الديكارتية".

وعندما بدأ سبينوزا من خلال هذه الجماعة في وضع فلسفته الخاصة بدأت الجماعة في دراسة فلسفته ومناقشتها معه تاركة فلسفة ديكارت. وفي نفس هذه الفترة بدأ سبينوزا في تأليف أول عمل فلسفي خاص به وهو "رسالة في تهذيب العقل" Tractatus de intellectus emendatione، وفيها تناول سبينوزا طبيعة المعرفة وأنواعها، والسبل المناسبة للوصول إلى الفهم الصحيح لكل ما يمثل خير الإنسان، وذلك عن طريق علاجه من أوهامه وأخطائه وتطهيره بمنهج سليم يستطيع التمييز به بين الأفكار الغامضة والواضحة والأهم

من ذلك إثبات وحدة العقل والطبيعة، وأنه ليس هناك أي تناقض بين الروح والجسم والفكر والمادة، تلك الثنائيات التي سيطرت على فلسفة ديكارت. [9]

عندما اكتشف سبينوزا أن النتائج النهائية في رسالة تهذيب العقل هي إثبات وحدة العقل والطبيعة والقضاء على الثنائيات التقليدية في تاريخ الفلسفة ترك العمل في الرسالة واتجه اهتمامه إلى عمل أكثر ميتافيزيقية يركز على العلاقة بين الفكر والوجود والروح والجسد، ولذلك عكف على تأليف رسالة أخرى عنوانها: "رسالة قصيرة حول الإله والإنسان وصلاحه في الحياة" سنة (1661). لكنه سرعان ما توقف عن كتابتها بسبب اعتقاده أن أفكاره لن تنال القبول، وتركها كي ينشغل في عمل آخر يتناول فيه نفس الموضوعات ولكن بمنهج جديد يستطيع به تقديم أفكاره بصورة منطقية تجبر قارئها على الاعتقاد بها دون معارضة، وهذا هو المنهج الهندسي الذي يبدأ بمسلمات وفروض ثم قضايا مستنبطة منها، وهو الذي اتبعه في كتابه الرئيسي "الأخلاق". واستغرق منه العمل في هذا الكتاب سنوات طويلة حتى أكمله سنة (1675)، ولم يستطع نشره إلا قبيل وفاته بأشهر سنة (1677) دون وضع اسمه على الكتاب خوفاً من السلطات الدينية [10]. ويظهر في فكره تأثره بالفيلسوفين الحلاج وابن عربي. ويرى أن أهواء الإنسان الدينية والسياسية هي سبب بقائه في حالة العبودية.

نشر كتاب "علم الأخلاق" بعد وفاته وذلك في سنة (1677م)، وكتب هذا الكتاب باللغة اللاتينية والتي كانت هي السنة المتبعة في الفلسفة والعلم بأوروبا بالقرن السابع عشر، غير أنه كانت هناك رسالة صغيرة اكتشفها "فان فلوتن" في سنة (1852م) مكتوبة باللغة الهولندية عن "الله والإنسان"، ويُعتقد أنه كان من المرجح لها أن تكون بمثابة مقدمة لكتاب "علم الأخلاق". أما عن الكتب التي نشرها في حياته فهما كتابين الأول وهو كتاب "مبادئ الفلسفة الديكارتية" وهو الكتاب الوحيد الذي حمل اسمه عند نشره، والثاني "رسالة في الدولة والدين" والذي لم يكتب اسم سبينوزا عليه لخوفه من الاضطهاد والتنكيل الذي كان سائدًا، ظهر هذان الكتابان في وقت واحد تقريبا، غير أنهما سرعان ما وضعا في "القائمة السوداء" أو قائمة الكتب التي ينبغي تطهيرها ومن ثم قامت السلطات القائمة بحظر بيعهما، غير أن الرياح هذه المرة تأت بما لا تشتهيه السلطات، فقرار حظر الكتابين ساعد على انتشارهما، فطبعا تحت عناوين مضللة، ونُشر الكتاب الأول تحت عنوان "رسالة طبية" والثاني "قصة تاريخية". فقام عشرات الكتاب بوضع الكتب والردود بغرض دحض ما فيهما . [11]

وصف أحدهم سبينوزا بكونه "أعظم الملحدين الذين ظهروا على هذه الأرض فجورا وإثما". غير أنه كان هنالك الطرف المقابل تماما فوصف أحد المؤيدين كتابه بقوله إنه "كنز أبدي عظيم الفائدة"، وهذه هي سمة العظماء دائما، فمن سمات العظمة التي ما إن اجتمعت في شخص كان من أعاظم الرجال فرط العجاب من محبيه ومريديه، وفرط الحقد من حاسديه والمنكرين عليه. وهاتين الصفتين اجتمعتا في سبينوزا العظيم.

المبحث الثاني

مفهوم الإنسان عبر نظرية سبينوزا المعرفية

يعد كتاب "علم الأخلاق" لسبينوزا هو افضل ما كتب في الفلسفة الحديثة، وقد كتبه سبينوزا على نحو ما تكتب البراهين الهندسية، وكان غرضه من ذلك هو أنْ تكون نظرياته لها نفس وضوح النظريات الهندسية، حتى وأن كان كتابه غامضًا يصعب فهمه على الكثرة، فهو اعتمد على ما سبقه، رغم ذلك هناك صعوبة في فهمه، لأنّ سبينوزا قد يعمل على استعمال المصطلحات الفلسفية بشكل مغاير عن بقية الفلاسفة. ولقد اعترف سبينوزا نفسه بهذه الصعوبة، فقال: هنا سيرتبك القارئ بغير شك، وسيذكر أشياء كثيرة ستنتهي به إلى الوقوف والحيرة.

اولا: مفهومه عن الغايات الإنسانية

فكر سبينوزا في الوضع الإنساني ووجد أن كل البشر يسعون وراء عدد من الأهداف منها: الثروة والشهرة والمتعة، معتقدين أن هذه الأشياء سوف تجلب لهم السعادة، إلا أن سعيهم وراءها أو حتى حصولهم عليها لم يوصلهم إلى تلك السعادة التي يتصورونها، ومن ثم يستبعد سبينوزا الثروة والشهرة واللذة باعتبارها ليست الهدف الحقيقي للإنسان الفاضل الذي يسمو نحو السعادة ذلك لأن هذه الأشياء هي في النهاية مجرد وسائل وليست أهدافا في ذاتها، وعندما يتضح أن هذه الوسائل لا توصلنا إلى السعادة الحقيقية أو الفضيلة الحقة فيجب علينا أن نتخلى عن استخدامها ونبحث عن وسائل أخرى، وإذا كانت السعادة والفضيلة والحياة الكريمة أهدافًا تتطلب لتحقيقها وسائل، فإن لـــــ "سبينوزا" فلسفة خاصة حول الوسائل الخاصة لتحقيق هذه الأهداف.(12)

إن الوسائل الموصلة للسعادة والفضيلة والحياة الكريمة يجب أن تكون متفقة مع هذه الأهداف ذاتها، فكيف إذن للإنسان أن يستخدم وسائل مختلفة طبيعتها عن هذه الأهداف، وإن السعي نحو الثروة والشهرة واللذة مختلف في طبيعته عن السعي نحو السعادة (13). والفضيلة والحياة الكريمة، يجب أن تكون الوسيلة من

طبيعة الهدف. ولا يجد سبينوزا من وسيلة توصل الإنسان إلى هذه الأهداف سوى العقل المستنير والتفكير القويم [14]، ومعنى هذا أن تنظيم الإنسان لحياته وسلوكه بطريقة عقلانية هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى السعادة والفضيلة والحياة الكريمة. وبالتالي يجب على العقل أن يكون هو الموجه للإنسان وأن يكون أداته ووسيلته نحو هذه الأهداف. ذلك لأن هذه الأهداف ذاتها ليست في حقيقتها سوى العقلانية المتحققة في حياة الإنسان، أما الثروة والشهرة واللذة فليست بأهداف ولا حتى بوسائل عقلانية، وإذا كان الهدف عقلانيًا فيجب أن تكون الوسيلة عقلانية هي الأخرى. وبذلك تكون العقلانية هي هدف الحياة الإنسانية وهي أيضًا وسيلة لهذا الهدف، ومن أجل هذا السبب يبدأ سبينوزا بمحاولة لإصلاح العقل، أي محاولة توضح كيفية تهذيب الإنسان لحياته العقلية.

حيث وضع سبينوزا نظريته حول العقل والجسد في مقابل نظرية ديكارت التي تعد في حقيقتها إعادة صياغة لنظريات العصور الوسطى، وذهب ديكارت إلى أن الكائن الإنساني مكون من جوهرين منفصلين ومتمايزين، جوهر مفكر وهو العقل وجوهر ممتد وهو الجسم. وبالنسبة لديكارت فإننا نستطيع التفكير في العقل واستقلاله عن الجسم، إذ نستطيع التفكير في الجسد وآلية استقلاله عن العقل، لأن لكل جوهر قوانينه الحاكمة له والمختلفة عن الجوهر الآخر. وديكارت بذلك يعد ثنائيا في نظريته حول العقل والجسد، وبمزيد من الدقة نقول أنه "جوهر ثنائي" [15] substantialist Dualist.

يذهب ديكارت إلى أن العقل والجسد منفصلين عن بعضهما البعض لكنهما في نفس الوقت موجودين معًا، ووجودهما معا ليس ضروريا بل عارضا، لأن الجسد يمكنه أن يوجد بدون عقل في حالة الأطفال والمجانين والحيوانات، والعقل أيضا يمكنه أن يوجد بدون الجسد في حالة النوم وبعد الموت عندما يموت الجسد وتبقى الروح. كما يذهب ديكارت إلى أن العقل موجود في الجسد كله لا في جزء فيه وحسب، ذلك لأن العقل ليس مثل ربان السفينة الموجود في مكان منها ويوجهها من هذا المكان، فالعقل منتشر في كل الجسد لأن العقل هو مصدر الإرادة التي تحرك كل أجزاء الجسد كما أنه مصدر الأحاسيس التي يشعر بها المرء في جسده كله. والجسد عند ديكارت آلة يحركها العقل. وفي مقابل الثنائية الديكارتية بين العقل والجسد يأتينا سبينوزا بنظرية مختلفة لم يسبق لأي فيلسوف أن جاء بها، إذ يذهب سبينوزا إلى أن العقل والجسد شيء واحد، وذلك من منطلق وجود جوهر واحد يحمل صفتي الفكر والامتداد في نفس الوقت. فالعقل والجسد عند سبينوزا صفتان أو حالان للجوهر الواحد.[16]

كما يذهب سبينوزا إلى أن العقل هو الحال المخصوص لجسد إنساني معين، ذلك لأن لكل جسد إنساني عقله الخاص، وهو يقول في ذلك: إن موضع الفكرة التي تشكل العقل الإنساني هي الجسد، الذي هو حال خاص للامتداد وليس شيئًا آخر سوى ذلك. وكل حادثة جسدية توازيها حادثة أخرى مماثلة لها على مستوى العقل، بمعنى أن كل ما يشعر به الجسد باعتباره إحساس يشعر به العقل باعتباره شعورًا أو فكرة، ذلك لأن الجوع إحساس جسدي، أما الرغبة في تناول الطعام فهي شعور عقلي، ومثلما يشعر الجسد بالجوع يشعر العقل بالرغبة التي هي شيء عقلي في السعي نحو البحث عن الطعام.

ثانيا: طبيعة المعرفة عند سبينوزا

كما أن المعرفة عند سبينوزا هي الإدراك الصحيح، لذلك فهو يبدأ بالبحث في أنواع الإدراك وهي تتمثل في أربعة: الإدراك الشائع أي ذلك النوع من المعرفة المباشرة التي نتلقاها بتلقائية من الناس مثل معرفة يوم ميلادي أو والدي أو أي شيء آخر لم أشك يوماً في وجوده، الإدراك النابع من الخبرة، أي المعلومات من الأحداث التي سبق وأن حدثت، هذا النوع من المعرفة لم يتعامل معه العقل بالتحليل أو الفهم، وذلك مثل معرفتي أنني سأموت من خلال مشاهداتي للناس الذين يموتون كل يوم وإدراكي أن مصيري سوف يكون نفس مصيرهم على الرغم من اختلاف أسباب موتهم عن أسباب موتى، وأعلم من الخبرة المجردة أن الزيت يشعل النار وأن الماء يطفئها، وأعلم أن الكلب حيوان ثديي ينبح وأن الإنسان حيوان عاقل، وهذا النوع من المعرفة يشمل كل المعرفة العملية أو الخبرات الإنسانية اليومية، الإدراك الذي يرجع إلى معرفتي أن شيء ما ينتج من شيء آخر لكن دون معرفة السبب، مثل أن الحرارة تذيب الجليد، وأن الماء يغلي بالتسخين ويصير بخاراً. (17)

وعند التأثر الجسدي يكون هناك علم بذلك، وأن العقل مرتبط بالجسم على نحو ما، لكننا لا نعلم على وجه الدقة كيف يرتبط الاثنان معا ولا طبيعة الإحساس ذاته، أو عندما ندرك أن من طبيعة العين أن تجعل الأشياء البعيدة تبدو أصغر مما هي عليه ونتوصل من ذلك إلى أن الشمس أكبر مما يراها البصر. وإن الإدراك النابع من معرفة الأشياء من ماهيتها (18)، مثل معرفتي أن من ماهية المثلث أن تكون مجموع زواياه (180) درجة، وأن زاويتي قاعدة المثلث المتساوي الضلعين متساويتان، هذا النوع من المعرفة هو المعرفة العلمية الدقيقة والصحيحة عن حق. ويضيف سبينوزا أن هذا النوع يوصلنا إلى معرفة كيفية ارتباط العقل بالجسم إذا عرفنا بدقة ماهية العقل. تتكون المعرفة عند سبينوزا من أفكار، وهذه الأفكار مجردة (19)، لكنها في نفس الوقت أفكار لأشياء عينية. فالجسم شيء غير ملموس، أما فكرة الجسم كما تتعامل معها

الفيزياء مثلاً فهي فكرة مجردة يذهب سبينوزا من خلالها الى شيء مادي الفكرة التي تعبر عنه، وبالتالي فليس هناك انفصال بين الفكر والامتداد، ذلك لأن كل فكرة هي إما فكرة عن شيء ممتد أو فكرة عن فكرة هذا الشيء الممتد، فالشمس مثلًا شيء مادي محسوس ومشاهد، والشكل الكروي هو فكرة الشمس، والدائرة هي فكرة الكرة، فعلى الرغم مما تبدو عليه الأفكار من تجريد وعمومية إلا أنها تشير في النهاية إلى فكرة بسيطة عن شيء ممتد. ومصدر تجريد وعمومية الفكرة أنها لا تشير مباشرة إلى الشيء المادي بل إلى فكرة أخرى عن هذا الشيء المادي، مثل الدائرة التي تشير بصورة غير مباشرة للشمس عبر فكرة الشكل الكروي.

تختلف فلسفة سبينوزا في هذه المجالات عن كل الفلسفات السابقة عليه، بل واللاحقة أيضًا، حتى ليبدو سبينوزا وكأنه يقف وحده بين مفكري العصر الحديث، ما عدا اقتراب فولتير وروسو والفلاسفة الماديين الفرنسيين في أواخر القرن الثامن عشر منه. ووجه الاختلاف أن الفلاسفة المحدثين قبل سبينوزا والمعاصرين له جروا على عادة فلاسفة العصور الوسطى في محاولاتهم التوفيق بين اللاهوت أو الدين والإيمان من جهة والعقل أو الفلسفة من جهة أخرى، وإثبات عدم تعارضهما أو تناقضهما، بحيث أصبح العقل لديهم أوليًا في إثبات صحة بعض العقائد اللاهوتية المعنية. (20) وبذلك رأينا في العصور الوسطى سلسلة من الفلاسفة بين القديس أوغسطين في القرن السادس الميلادي والقديس توما الأكويني في القرنين الثاني عشر والثالث عشر يستخدمون حججًا عقلية في إثبات صحة اللاهوت. ولم يخرج فلاسفة الإسلام عن ذلك، إذ ظهرت في الفلسفة الإسلامية مذاهب كلامية أهمها المعتزلة والأشاعرة هدفت الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، وظهرت أيضًا فلسفات تحاول التوفيق بين العقل والنقل، أهمها محاولة ابن رشد في كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال»، و«درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية. ولم يكن فلاسفة العصر الحديث استثناء في هذا الاتجاه، إذ رأينا كيف أن ديكارت يستخدم منهجاً عقلياً يبدأ بالشك كي ينتهي إلى وجود الأنا أفكر، ووجود الإله وخلود النفس، وقد سار في الاتجاه نفسه بعد سبينوزا كل من مالبرانش وباسكال من الفرنسيين ولايبنتز وكرستيان فولف من الألمان، حتى أن كانط نفسه بعد أن نقد أولاً وجود الإله وخلود النفس في «نقد العقل الخالص» عاد في «نقد العقل العملي» إلى توضيح أن الأخلاق لا يمكن أن تقوم لها قائمة دون التسليم، من باب الضرورات العملية الأخلاقية، بوجود الإله وخلود النفس. (21)

أما سبينوزا فهو يشذ عن كل هؤلاء ويقف برأيه منفردًا في القرن السابع عشر، على الرغم من تبني فولتير وروسو وكثير من الفلاسفة المعاصرين لوجهة نظره، إذ أوضح في كتابه «رسالة في اللاهوت

والسياسة» أن الإيمان والفلسفة منفصلين، وأن العقل ليس خادماً للاهوت – ولكل مجال خاص يختلف عن مجال الآخر. [22]

إذ يذهب إلى أن غاية الفلسفة هي الحق وحده أو الحقيقة، وغاية الإيمان هي الطاعة والتقوى وحسب. كما أن الأسس التي تقوم عليها الفلسفة هي الأفكار المشتركة أي المبادئ العامة التي تحكم الأشياء، أو القوانين الثابتة للطبيعة، وهذه نستخلصها من دراستنا للطبيعة وحدها. أما الإيمان فيتأسس على الكتب المقدسة والتسليم بواقعة الوحي، ولأن مجال الفلسفة يختلف عن مجال الإيمان، فإن التفلسف لا يضر الإيمان ولا يشكل خطرًا عليه. ولأن الإيمان يعتمد على التسليم بالوحي والكتب المقدسة، فمعنى هذا أن الإيمان في جوهره يكفل لكل فرد الحرية المطلقة في أن يتفلسف. ولأن الهدف الأساسي للإيمان هو تهذيب الأخلاق بجعل الناس يطيعون الأوامر الأخلاقية، فإنه لن يتضرر إذا لم تدعو الفلسفة إلى أي عصيان أو تعصب أو كراهية في المجتمع. والمؤمنون الحقيقيون هم أولئك الذين يدعون الناس إلى العدل والإحسان، لا اللجوء إلى حجج وبراهين عقلية لإثبات عقائد معينة. وينطلق سبينوزا في وجهة نظره هذه من مبدأ يذهب إلى أن العقائد مختلفة لدى الشعوب، وكذلك فهي تتغير وتتطور، أما الإيمان الذي يتمثل في التقوى والطاعة والدعوة إلى العدل والإحسان فثابت وغير متغير. ولذلك لا يجب أن يتدخل العقل في إثبات عقائد معينة لأن هذه ليست وظيفته، بل وظيفته الأساسية اكتشاف القوانين وإدراك نظام الطبيعة. [23]

ويميل سبينوزا إلى الرأي القائل أن الإيمان طريق ضروري لقيادة العامة، ذلك لأن الكتاب المقدس يعتمد في نصوصه على الخيال التصويري والمجاز وضرب الأمثلة، ولغته خطابية حماسية. والجمهور لا يستطيع الوصول إلى المبادئ الأخلاقية عن طريق النظر العقلي والتفلسف والبرهان مثلما يفعل الفلاسفة [24]، ولذلك فهو في حاجة إلى من يقدم له حقائق الأخلاق بالأسلوب الخيالي والمجازي في صورة مباشرة، وعلى أنها قوانين مفروضة في صورة شريعة. ذلك لأن العامة لا يستطيعون التوصل بتفكيرهم الخاص إلى الصواب والخطأ وهم في حاجة دائمة إلى من يقودهم ويقدم لهم القواعد جاهزة، وهذا ما يوفره لهم الدين. وإذا كانت الغاية من الحياة الإنسانية هي السعادة، فإن الدين يقدم للعامة طريقًا مختصرًا وبسيطًا للوصول إليها، وهو الطاعة والخضوع والالتزام بالأوامر الإلهية، وهذا ضروري بالنسبة لهم لأن طريق النظر العقلي إلى السعادة والمتمثل في إدراك طبيعة الوجود والقانون الطبيعي الذي إذا اتفق سلوك الإنسان معه تحققت له السعادة ليس متاحًا للعامة بل هو خاص بأصحاب العقل والتفكير الفلسفي. ولذلك يذهب سبينوزا إلى ضرورة التسليم بسلطة الدين والكتب المقدسة وعدم إخضاعها للعقل، لأن هذا الإخضاع إما أن يؤدي إلى

انهيار كثير من العقائد الضـــرورية أو يولد الاختلافات اللاهوتية والمذهبية التي يجب على الإيمان الحقيقى تجنبها، لأن هدفه النهائي ليس نظريًا بل عمليًا، ليس هدفه إثبات عقائد معينة بل هدفه التقوى والطاعة والعدل والإحسان.

المبحث الثالث

المشكلة الأخلاقية عند باروخ سبينوزا

بصورة عامة أفرد هذا البحث نسق إسبينوزا، وذلك لأننا لا نفهم المشكلة الأخلاقية إلا ضمن إطار هذا النسق الفلسفي، وذلك من خلال النظرة الوحدانية للكون عند إسبينوزا (وحدة الجوهر) وكذلك المنهج الهندسي الذي استخدمه في تحليل قضاياه، وذلك عبر التركيز على كتاب الأخلاق لأنه الكتاب الرئيسي لإسبينوزا (25) . وتعبر المشكلة الأخلاقية عند إسبينوزا عن صلب الموضوع، بحيث حاولنا فهم حرية الإنسان الأخلاقية بعد انتفاء الحرية خاصة في مستواها الشعوري عند عرضنا لنسق إسبينوزا فتطرقنا إلى "الطبيعية الإنسانية وانفعالات النفس" كمفاهيم محورية للمشكلة ثم الرجوع إلى الحديث عن ما اقترحه إسبينوزا "الانفعالات والتحرر من سلطة عبوديتها"، وذلك من أجل تحقيق السعادة، لنصل في الأخير إلى أن تحقيق السعادة مرهون لمعرفة الإنسان لنظام الضرورة من جانب والسيطرة على الانفعالات من جانب آخر. فالانفعالات التي تكون سببا في تعاسة الانسان هي نفسها يمكن أن تكون سبب العلة لحريته [26]

اولا: وحدة الجوهر:

الجوهر في الأشياء هو ما يوجد في ذاته، ويتصور بذاته، أي هو ما لا يحتاج تكوين تصور له إلى تصور شيء آخر، ولا يمكن للجوهر أن يكون إلا واحداً. كما يعتبر سبينوزا "الجوهر موجود بالضرورة، أي أن الوجود ينتمي إلى طبيعة الجوهر، ومعنى الانتماء إلى طبيعة الجوهر أنه ليس شيئاً اكتسبه من الخارج، أي أنه ليس مخلوقاً". ويعد ســبينوزا الجوهر لا متناهياً كما أنه أزلي، بمعنى هو الوجود ذاته، ويجعل من الوجود مرادفاً للحقيقة الأزلية التي لا يمكن تصورها من خلال الزمان. [27]

وهناك بعض الآراء منها:

1- كيف يكون الجوهر ماثلاً في الأشياء ونفتقد كل تصور عنه وله؟ وما هو المعيار التصوري الذي يجعلنا ندرك الجوهر حدساً بمواصفات ميتافيزيقية لا يمكن إدراكها عقلياً، كما لا يمكن الاستدلال المعرفي بها على غيرها؟ سبينوزا أدخل الجوهر في نفق ميتافيزيقا وحدة الوجود ولم يخرجه منها، لأنه

كما أدخل "لا شيء" يمكن إدراكه في مجانسة ميتافيزيقية، فهو أصبح لا يستطيع استنباط أي شيء من "لا شيء" ميتافيزيقي أيضاً. فسبينوزا لم يكتفِ بتعامله مع تجريد فلسفي وحسب، بل تعامل مع تجريد ميتافيزيقي أشمل خارج مدركات العقل للوجود، كانت كذلك تجاوز هذه الإشكالية العدمية الميتافيزيقية، بعباراته: الجوهر هو الشيء بذاته خارج إدراك العقل له وكفى، وكل مجهود يُصرف من أجل ذلك هو عقيم غير مجد. (28)

2- الجوهر الكوني، بمعنى أزلية الوجود لا ينطبق عليه القول إن ماهية الجوهر هو غير أزلي، باستثناء إذا كان المقصود بأزلية الجوهر تتضمن أزلية الله كجوهر كامل لا يُدرك، وهو جوهر تام شامل ليس مخلوقاً ولا يحده الزمان والمكان الإدراكي. وبالرغم من هناك حدس بكل شيء ندركه في الطبيعة، ومن حولنا لمسة جوهر إلهية معجزة فيه.

3- الجوهر هو الذي لا نحتاج الى تكوين تصوره وهو عديم الحضور في تعينه الأنطولوجي أو تعينه الإدراكي المجرد. والله جوهر كامل لا يمكن إدراكه عقلياً سوى في بعض من تلك التوزيعات الصفاتية الوجودية غير الجوهرية داخل موجودات الوجود، والتي ندركها بالصفات فقط للاستدلال عليه. ولا ندرك بالأشياء جواهرها الموجودة فيها بالضرورة الإلهية التي جعلت من عقل الإنسان محكوماً بمحدودية عدم استطاعة إدراكه الجوهر بالأشياء ولا الجوهر في الكلية الكونية. الوجود يُفهم بدلالة الجوهر الكامل (الله) كما يحدس الجوهر صفاتياً في توزع تلك الصفات على موجودات الطبيعة بدلالة وجودها.

الحقيقة الأزلية التي يصفها سبينوزا للجوهر هو ما لا يمكن تصوره من خلال الزمان، عليه يترتب أن الحقيقة الأزلية لكل شيء يطاله الامتداد اللامتناهي غير المحدود، وذلك المرادف لحقيقة معنى الزمان، وما لا يكتسب صفة الاحتواء الزمني الإدراكي له، لا وجود له خارج أزلية الزمن باعتباره جوهراً لا يمكن معرفته. الجوهر الكوني الأزلي اللامتناهي أشمل من كونية وزمانية الزمن ذاته.

يعد سبينوزا "الجوهر موجود بالضرورة، أي أن الوجود ينتمي إلى طبيعة الجوهر، ومعنى الانتماء إلى طبيعة الجوهر أنه ليس شيئاً اكتسبه الجوهر من الخارج، أي أن الجوهر ليس مخلوقاً" (29). طبعاً الجواهر بمفهوم سبينوزا الميتافيزيقي هي صفات إلهية لا ندركها مخلوقة بل ندركها موجودة موزعة بالأشياء في عالمنا، والذي ندركه بصفات موجوداته وليس بصفات ماهياته الجوهرية المحتجبة عن الإدراك.

ثانيا: الانفعالات والتحرر من سلطة عبوديتها

عديدة هي التصورات الأخلاقية التي لم تفهم بشكل سليم للطبيعة البشرية، ولم تنجح في بناء مخرجاً للإنسان من العبودية التي يتخبط فيها، والسبب في ذلك أنها بقيت تتوهم حلولا متعالية عن الطبيعة الإنسانية وتصـــورات ميتافيزيقية توهم أنه بالإمكان قهر القوى الانفعالية بفعل الحرية أو الإرادة أو العقل، كما تعتقد الرواقية أو الديكارتية. [30]

عمل ســبينوزا على النقد الشــديد لمذاهب الفلســفية الأخلاقية، خاصــة الرواقية والديكارتية، لإقرارها بسـلطان النفس المطلق على الانفعالات، يقول سـبينوزا: الرواقيون يرون أن الانفعالات تخضـع تماما للإرادة وأنه بوسـع المرء التحكم فيها. لكن التجربة، لمبادئهم الخاصــة، قد أرغمتهم على الاعتراف بأن قمعها والتحكم فيها يقتضـي بالضـرورة تدريبا شديداً. وهذا الرأي هو الذي يأخذ به ديكارت أيضـا، فهو يسلم بأن النفس تتحد خاصـة بجزء معين يطلق عليه الغدة الصـنوبرية، وبفضـل هذه الغدة تشـعر النفس بكل الحركات التي تحدث في الجســم وبالأجســام الخارجية [31]. مقابل هذا التصــور الأخلاقي، قدم ســبينوزا تصــورا إيتيقيا يرى بأن الانفعالات لا يمكنها أن تتراجع أمام العقل ولا يمكنها أن تقهر بالإرادة أو حســـن النية، فالانفعال لا يمكن منعه أو تحطيمه إلا بانفعال مقابل، إذ لا يمكن كبح الانفعال أو القضــاء عليه إلا بانفعال مناقضــة له وأشــد منه [32]. مثلا: تزول الكراهية عندما تقابل بالحب. وعندما ينتصـــر الحب على الكراهية انتصـــارا تاما فهي تتحول إلى حب، ويصـــير حبا أعظما كما لو لم تســبقه كراهية [33]. لذا يعد علاج الانفعالات والخروج من العبودية أمر يترتب عليه مصدر الانفعالات التي تكبل قوى الإنسان، وهي نفسها التي تعمل على تحريره من تلك القوى. فالمبدأ الذي ينطلق منه سـبينوزا هو أن الخلاص لا يتم باسـتدعاء قوى جديدة في الإنسـان، بل بالاعتماد على نفس قواه. وبالتالي فكل الأفعال التي يقوم بها بمقتضـــى انفعال ســلبي، يســتطيع القيام بها بدونه. وبمقتضى العقل: وهو الفعل الملازم للضرورة الطبيعية للإنسان منظورا إليها في ذاتها فحسب .[34]

إن العقل لا يطلب شـيئا مناقضـا لطبيعته، بل يدعو كل امرئ إلى أن يحب نفسـه وأن يبحث عما ينفعه، وأن يرغب في كل ما يزيد في قدرته على الفعل، وهذا يحدد وفقا لمبدأ الفضـيلة، اي يعني: السـلوك وفقا للقوانين الطبيعية، كما أن مبدأ الفضـيلة هو ذاته الجهد الذي يبذله الإنسـان في سـبيل حفظ كيانه الشـخصـي، بل إن سعادة الانسـان تكمن في كيانه، إذن فالرغبة في الفضـيلة يجب أن تكون لذات الفضـيلة، وبالتالي كلما اهتدى الانسان بالعقل كان حرا. ومن وصايا أو أوامر العقل أيضا: أن يكون جميع البشر على اتفاق في كل الأمور، وأن يسـعوا كلهم إلى ما يفيدهم جميعا، فالذين يقودهم العقل، لا يرغبون في شـيء لأنفسـهم إلا يرغبونه أيضـا لغيرهم .[35]

إذن فأوامر العقل تتمثل بشكل عام في أي الانفعالات التي تلائمه، وأيها تناقضه، فالتي تناقضه هي الانفعالات القبيحة، أما التي تلائمه فهي التي تزيد في قدرته على الفعل. إذن فأساس مبدأ العقل هو الفهم لا غير، والفهم هو المصدر الوحيد للفضيلة. فكلما اهتدى الانسان بالعقل، اختار من بين خيرين أعظمهما، ومن بين شرين اثنين أهونهما، وقد يبحث عن شر أقل في مقابل خير أعظم، ويتنازل عن الخير الأقل الذي يتسبب في شر أعظم، فالشر الأقل هنا يكون خيرا، والخير الأقل يكون شرا (36). بل يفضل الإنسان خيرا أعظم في المستقبل على خير أقل في الحاضر، وشرا أقل في الحاضر على شر أعظم في المستقبل. إن فضيلة الانسان الذي يهتدي بالعقل تتمثل في توقيه للمخاطر بقدر ما تتمثل في تغلبه عليها.

في علاج سبينوزا للانفعالات يستبعد كل حل سهل أو سحري، ويقوم بتحليل قدرة العقل، لأن البشر يستطيعون مقاومة الانفعالات بطريقة جادة، وهذه المقاومة لا يكون لها معنى إلا إذا قبلت كمنطلق لها بالطابع الإيجابي للفكرة الباطلة، فلابد من توسط هذه المقاومة بوضع إيجابية الصورة. فالانفعال يبقى عصيا بمجرد حضور الحق، وينبغي فضلا عن ذلك إنشاء صور تكون لها من الشدة ما يكفي كي تعوض الصورة الأولى(37) ، بمعنى أنه إذا ما نتج داخل النفس فعلان متضادان فلابد أن يطرأ بالضرورة تغيير على الفعلين، أو على أحدهما دون الآخر حتى يزول تضادهما.

فعلاج الانفعالات يأتي من الانفعالات نفسها، إذ يقدم سبينوزا في القضايا من القضية الاولى إلى القضية العاشرة علاجا للانفعالات، وهو يتحدث عما تسطيعه النفس من جهتها للتحكم فيها، أي قدرة النفس في ذاتها ضد الانفعالات (38). ففيما تتمثل هذه القدرة؟ تتمثل في كون النفس قادرة على تحقيق معرفة بهذه الانفعالات، فما من انفعال من انفعالات الجسم إلا ويستطيع الإنسان أن يكون عنه مفهوما واضحا متميزا، ويترتب على هذا أيضا أنه ما من انفعال من انفعالات النفس إلا ويستطيع الإنسان أن يكون عنه مفهوما واضحا، مادام أن انفعال النفس هو فكرة انفعال الجسم، فكل شخص قادر على معرفة انفعالاته، وإن لم يكن بشكل مطلق فعلى الأقل بصورة جزئية وبوضوح وتميز بحيث يكون أقل سلبية .(39)

ويتضح عن ذلك أن القدر الذي يعيشه الإنسان ليس قدرا محتوما، فدور الإنسان في قلب وضعه التحرري هو أمر ممكن في كل الحالات شريطة تقديم المقابل، وهو العمل على إعمال الفهم وتفعيل العقل. كما أن النفس لها قدرة على فصل الانفعالات عن فكرة العلة الخارجية التي تتخيلها بصورة مبهمة، وهذا هو المبدأ الثاني الذي يعطيه سبينوزا لعلاج الانفعالات، وهو الابتعاد عن الأسباب الخارجية المصاحبة للانفعالات حتى يتم تقليصها أو القضاء عليها. يقول سبينوزا: إذا تم فصل تأثرا أو انفعالا سلبيا عن فكرة علة خارجية وتم ربط

هذه الانفعالات بأفكار أخرى، فإن حب العلة الخارجية أو كراهيتها ستزول، كما تزول أيضا كل تقلبات النفس الناجمة عن هذين الانفعالين. فما يكون صورة الحب أو الكراهية هو الفرح أو الحزن المصحوب بفكرة علة خارجية، وبالتالي فبزوال هذه الفكرة تزول صورة الحب والكراهية، وتبعا لذلك سيزول هذان الانفعالان كما تزول أيضا الانفعالات المتولدة عنهما.(40)

لذا يتوجب على النفس أن تفكر فيما تدركه بوضوح وتميز، وبهذه الصورة سيتم فصل الانفعال ذاته عن فكرة علة خارجية ويقترن بأفكار صحيحة، هكذا إذن فكل انفعال سلبي يمكنه أن يزول مادام أن الانسان يكون فاعلا ومنفعلا بالنظر إلى نفس الرغبة، أي بمقدوره أن يحول التأثيرات من جهة السلب إلى جهة الإيجاب، وذلك بتكوين أفكار ملائمة عنها، مثلا، الفرح انفعال ينمي من القدرة على الفعل، لكن إذا ما كان مصحوبا بعلة خارجية سيكون حينها تأثير سلبي، عكس إذا ما كان علة داخلية لهذا الانفعال، إذ سيكون تأثيره إيجابيا، فرحا فعالا. وأيضا الرغبة في أن عيش الآخرون وفقا للطبع الشخصي للفرد. فهذا الانفعال عند الشخص الذي لا يهتدي بالعقل يسمى طموحا، وهي لا تختلف عن الزهو، وتكون عند الشخص الذي يهتدي بالعقل ويسترشد به فعلا أي فضيلة وهي ما يطلق عليها "الأخلاقية". فعلاج الانفعالات لا يتطلب غير المعرفة الصحيحة، ولا يوجد عند الانسان أفضل من هذه القدرة، فقدرته الوحيدة هي القدرة على التفكير وعلى تكوين أفكار تامة لا غير. (41)

هذا لا يعني أن القضاء على الانفعالات وعلاجها يكون فقط بمعرفتها، بل تكون النفس أقل تأثرا بقدر ما يكون الانفعال معلوما لدى الإنسان، وبالتالي فالانفعال لا يتم القضاء عليه، فقط يتم إزالة السلبية. لأن فهم انفعال ما يعني استيعاب الأسباب والقوانين التي تفسره، أن الموقف السبينوزي القائم على الموافقة ينطلق من الضرورة باعتبارها مصدرا للحرية، ويظهر أن الحرية والخلاص هي جزء من الطبيعة المطلقة. هكذا إذن نفهم أن علاج الانفعالات والتحرر من عبوديتها هو أمر يترتب على هذه العبودية نفسها، لأن الحرية لا تأتي من لا شيء بل تخرج من نقيضها، فلا وجود لحرية جاهزة أو حرية آنية من عالم مفارق، بل تتأسس من صميم الحياة المعيشية، وتخرج من صلب المعاناة التي يتخبط فيها الإنسان. والرغبة التي تزج بالإنسان في سجن العبودية هي التي تعمل على تحريره، فالاختلاف يأتي فقط من كون هذه الرغبة تحت العلل الخارجية، أو أنها تحت سلطة العقل، فالإنسان هو المسؤول عن نفسه، وهو المسؤول عن انعتاقه وتحرره. بالتالي فكل الوساطات تتلاشى، تلك الوساطات التي أقامها الفكر الأخلاقي والخرافي، لو أمكن صياغة التصور

السبينوزي صياغة سقراطيه لوجب القول "حرر نفسك بنفسك" (42)، لأن كل فرد يستطيع أن ينظم ويرتب انفعالات الجسم، وأن يمنع الانفعالات السيئة من أن تؤثر فيه بسهولة.

كلما كانت الانفعالات منظمة ومرتبة وفق نظام ملائم للنفس، يكون ردها أصعب مما لو كانت مضطربة ومختلطة، إذن أفضل ما يمكن أن يقوم به الإنسان طالما لم يكتسب معرفة كاملة عن انفعالاته، هو أن يتصور قاعدة عامة للسلوك القويم في الحياة، أي سلوك يكون مبنيا على مبادئ ثابتة، وأن يحفظها في ذاكرته ليطبقها في الأمور الجزئية التي تعرضه في حياته اليومية، مثلا، أن يضع من بين قواعد الحياة، التغلب على الكراهية بالحب والأريحية، لا أن يقابلها بالكراهية. وأن يفكر في استخدام رباطة الجأش من أجل القضاء على الخوف، ولابد أيضا من أن يستعرض المرء مخاطر الحياة العامة وأن يتخيلها ويفكر في أفضل سبل لاستبعادها وذلك بحضور البديهة وشدة البأس، كما ينبغي الانتباه إلى ما يتضمنه كل شيء من خير، حتى يكون الشعور بالفرح هو المحدد للأفعال على الدوام .(43)

ويقدم سبينوزا أمثلة لكيفية التحكم في الانفعالات وفقا لأوامر العقل، لكن الحل الذي يقدمه هنا يتعلق بمستوى أولي، والنظام الذي اعتمده سبينوزا هنا – حسب جيل دولوز – هو كالتالي:

بقدر ما تعذبنا الانفعالات المضادة لطبيعتنا، تكون لدينا القدرة على تشكيل أفكار واضحة ومتميزة، وعلى نسج تأثيرات تترابط مع بعضها طبقا للعقل، وهي انفعالات فرحة، هذه الانفعالات الفرحة هي فرصة أولى لتشكيل مفهومات مشتركة، وبقدر ما يكتسب الانسان هذه المفهومات المشتركة لتصبح له قوة لتجنب اللقاءات السيئة، والانفعالات المضادة له، بقدر ما يشعر الإنسان بالضرورة يكون قادرا على انتاج مفهومات مشتركة جديدة تجعله قادر على فهم التباينات والمضايقات نفسها. (44)

على ضوء ذلك ارى وجوب البحث عن طريقة لإصلاح العقل وتنقيته لكي نثق فيه، ايضا وجوب التمييز بين أنواع المعرفة، ولا نقنع إلا بما هو أفضلها وأوضحها، ومنها ما جاء إلينا عبر الأخبار والإشاعات، ايضا ما هو عن طريق التجربة الغامضة، فضلا عما نصل إليه عن طريق الاستدلال والاستنتاج، وهذا النوع الأخير من المعرفة أرقى الأنواع.

الخاتمة

إن فلسفة سبينوزا ونسقه الأنطولوجي قد يكونان المحاولة الأقوى في تاريخ الفكر لبناء نظرية خالصة عن الوجود، وهذا بسبب أن اسبينوزا قد سعى إلى بناء مذهب مادي صرف لا يسلم بشيء للنزعات الروحية أو الدينية، وهكذا فإن اسبينوزا هو فيلسوف مادي، حيث ينظر إلى الموجودات من جهة قوتها وتركيبها

المادي، وليس من جهة ماهياتها الأخلاقية أو الدينية المجردة. كل الموجودات متســـاوية من حيث الاعتبار المنطقي والأخلاقي عند سبينوزا، فلا وجود لموجود أسمى أو أعلى قياسا إلى غيره في نظام الجوهر المطلق الواحد، لذاته وصفاته.

فمما لا شــك فيه أننا أمام افكار تحمل الصــفة التدميرية لبنية المجتمع التقليدية في ذلك العصــر بل ولبنية الانسان النفسية التقليدية. فقد كان اسبينوزا هو الهدام لمفهوم عصره وربما كان هذا من الاسباب التي دعت رؤســاء المجمع اليهودي أن يمنعوا الناس من الاقتراب منه لأربعه أذرع وأن يأمروهم بأن لا يكلمه أحد بكلمه وأن لا يقرأ أحد شيئا جرى به قلمه أو أملاه لسانه وأن يلعنوه، وربما يكون هذا هو السبب في أنه طبع كتبه بدون أن يجرأ على وضــع اسـمه عليها تاركا كنزه الثمين لأجيال اخرى وقرون تاليه، عقل فلســفي جبار رفض مجدا زائلا في عصره باحثا عن مجد اعظم بتقدم العصور وخلودا يحسد عليه في ذاكره الإنسانية.

هوامش البحث

1 – James Martineau, A study of Spinoza (London: Macmillan, 1883), PP. 1-8)

2 – يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، مكتبة الدراسات الفلسفية، دار المعرف، مصر: ب. ت، ص 87.

3 – Steven Nadler, Spinoza's Ethics, An introduction (Nw York: Cambridge(3) University Press, 2006), PP. 11-13

4 – هاشم صالح، سبينوزا فضيحة عصره. صحيفة الشرق الأوسط، 2002، ص 55.

5 – سعود البلوي، سبينوزا الثائر المتحول، صحيفة الوطن السعودية، 2006، ص 87.

6 – فتح الباري، شـرح صـحي البخاري, لابن حجر العسـقلاني, تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, دار المعرفة, بيروت: كتاب "التوحيد" , باب رقم 55 "قول اهل الله تعالى: بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ , ج3 , ص 225.

7 – د .علي عبد الواحد وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة ل سالم , دار نهضة مصر للطبع والنشر , القاهرة , 1984م , ص 1

8 – د / عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية, دار الشرق , الطبعة الأولى, القاهرة: 19م, ج 5, ص 86 – ص 87.

9 – دكتور فؤاد زكريا، اسبينوزا، جامعة عين شمس، كلية الآداب، 1973، ص 52.

10 – قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من الأســاتذة ذوي الاختصــاص ومن اللاهوتيين، بأشـراف د . بطرس عبد الملك, وآخرون, دار الثقافة, ط12،القاهرة:
ص 467.

11 – موريس بوكاي، التوراة والأنجيل والقرآن والعلم, ترجمة: حسـن خالد, المكتب الأسـلامي, ط3، بيروت: 1990, ص 31.

12 – هنتر ميد، الفلسفة انواعها ومشكلاتها، ترجمة: د. فؤاد زكريا، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة: 1973، ص 112

13 – Spinoza, "On The Improvement of the Understadig" in The Chief works of Benedict de Spinoza, op. cit, vol. II, PP. 3-5

14 – أحمد امين، زكي نجيب محمود، السلسلة الفلسفية، قصة الفلسفة الحديثة، ج1، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: 1959، ص 137.

15 – Steven Nadler, Spinoza's Ethics, An introduction (Nw York: Cambridge University Press, 2006), PP. 11-13.

16– سـبينوزا: رسـالة في اللاهوت والسـياسـة. ترجمة د. حسـن حنفي، مراجعة د. فؤاد زكريا. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: 1981، ص 363.

17 – Spinoza, The Ethics in: The Chief Works of Benedict de Spinoza, Translated by R.H.M. Elwes (New York: Dorer Publications, 1955), p. 187.

18 – – قيس هادي احمد، دراسات في الفلسفة العلمية والانسانية، جامعة بغداد، 2002، ص 65

19 – برتر اندرسل، تاريخ الفلسفة العربية، الفلسفة الحديثة، ترجمة: محمد فتحي الشـنيطي: الكتاب الثالث، 1992، ص 96.

20 – د. حسن حنفي، رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر،، دار التنوير، بيروت: 1982، ص59.

21– د. فؤاد زكريا، سبينوزا، دار التنوير، بيروت: 1983، ص 115-118.

22– د. ابراهيم بيومي مدكور، يوسف افندي كرم، دروس في تاريخ الفلسفة، لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة: 1940، 117.

23- د. فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص 120-124.
24- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة. ترجمة د. حسن حنفي، مراجعة د. فؤاد زكريا. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1981م، ص365-367.
25 - Jonathan Bennett: "Spinoza's Metaphysics", in Don Garrett (ed.), op. cit, PP. 80-88
26 - د. أحمد علمي، فلسفة الوجود والسعادة عند سبينوزا، ص 229.
27 - أمل مبروك، الفلسفة الحديثة، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: 2011، ص 119.
28 - سبينوزا، علم الأخلاق، الباب الثالث، القضية 43 ، ص 189.
29 - أمل مبروك، الفلسفة الحديثة، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: 2011، ص 108.
30 - أحمد علمي، فلسفة الوجود والسعادة عند سبينوزا، ص 248
31 - سبينوزا، علم الأخلاق، تمهيد الباب الخامس. ص 314.
32 - سبينوزا: علم الأخلاق، الباب الرابع، القضية 7 ، ص 239 .
33 - سبينوزا، علم الأخلاق، الباب الثالث، القضية 43 ، ص 44.
34 - سبينوزا، علم الأخلاق، الباب الرابع، القضية 59 وبرهانها. ص 208 .
35 - سبينوزا، علم الأخلاق، حاشية القضية 18 ، الباب الرابع، ص 249
36 - سبينوزا: علم الأخلاق، الباب الرابع، القضية 65 ولازمتها، ص 294.
37 - فاطمة حداد الشامخ، الفلسفة النسقية، ونسق الفلسفة السياسية عند سبينوزا، ص 141.
38 - Une lecture contunier de L'Ethique de Spinoza
39 - سبينوزا: علم الأخلاق، الباب الخامس، القضية 4 ، برهانها وحاشيتها، ص 320 - 319 .
40- سبينوزا، علم الأخلاق، الباب الخامس، برهان القضية 2 ص 313.
41 - Une lecture contunier de L'éthique. Plan de la partie V
42 - د. أحمد علمي: فلسفة الوجود والسعادة عند سبينوزا، ص 250.
43- سبينوزا، علم الأخلاق، الباب الخامس، حاشية القضية 10، ص 327.
44- جيل دولوز، سبينوزا ومشكلة التعبير، ص 240.